



انتهت الحرب في سوريا على شكلٍ مختلفٍ عما عرفتهُ أغلب الحروب، ربما لأنَّ الحالة السورية فريدة، ولا شبيه لها، حرب على شعبٍ طالب بالتغيير السياسي، وكانت بداية ثورته المطالبة بإقالة مسؤول أو اثنين محليين، ففي الحالة السورية لا يوجد شيء اسمه صباح اليوم التالي للحرب، الذي من الواضح أنه لن يأتي، أقله في المدى الزمني المنظور.

لكنَّ ثمة طرفاً يدعي أنه انتصر، وإن كانت تلك المزاعم تنتهي على تناقضاتٍ هائلة، ما بين ادعاء أنَّ الانتصار تم على قوى الإرهاب، "داعش" وأضرابها، وإن كانت هذه القوى أصلاً مستدحلة على الحدث، وليس طرفاً أصيلاً فيه، كما أنها لم تكن لديها مطالب سياسية تخرج نظام الأسد، ولم تكن بالأصل في حربٍ معه، ولا مع حلفائه.

غير أنَّ هذا الزعم بالانتصار يجري توسيع دائنته مرتَّة تلو الأخرى، عن طريق الأطراف الرديفة، حزب الله مثلاً، وتصويره نصراً على مكون مذهبي في المنطقة سعى إلى كسر هيمنة مكون آخر لكنه فشل، وأنَّ الطرف الآخر (إيران وحلفاءها) يكتبون تاريخ المنطقة، فيما "المنهزمون" يحاولون، قدر الإمكان، التقليل من هزيمتهم عبر توصلهم مكاسب هامشية هنا وهناك.

ليس سراً أنَّ هذا الفريق (الأسد وحلفاءه) تعاطى مع الحدث، منذ بدايته، بوصفه حرباً بين منظومتين، وليس باعتباره شأنَاً داخلياً بين الشعب السوري ومنظومة الحكم، في محاولةٍ لإخراج الأمر عن سياقه، إما لغايات تعبوية بهدف استقطاب المقاتلين لمساندة منظومة الحكم السورية وإيجاد ذريعة تبريرية، أو لإيجاد مساحة حرية للتعامل مع الحراك السوري، ورفع سقف التصعيد إلى درجات أعلى.

وكان من السهل تشكيل منظومة متماشة وصلبة، في مواجهة هذا الحراك، على اعتبار أنَّ أرضيته موجودة، سواء من خلال شبكة العلاقات والتحالفات القائمة أصلاً قبل الحدث، أو نتيجة تشابه بنى النظم السلطوية وتركيبتها داخل هذا التحالف، أو حتى لوجود البعد الطائفي بين حلقاته الثلاث على الأقل (إيران، نظام الأسد، وحزب الله)، والتقاءهم مع روسيا التي لا تخفي مدى حساسيتها من الإسلام السنوي، ورغبتها في إيجاد توازن سني - شيعي على مستوى العالم، على أن تكون ركيزة هذا

التوازن سيطرة شيعية في المشرق العربي، في مقابل أن السنة يشكلون كتلة أكبر على مستوى العالم.

كانت المشكلة في التحالف المقابل، حيث لم تكن، ولا في أي لحظة، نوايا جدية لتشكيله، أو تشغيله لمواجهة التحالف القائم والمتشكل، بل مجرد خليطٍ من الأطراف، لم يكن بينها أي تنسيق، في أحيان كثيرة، كما أنها تختلف في رؤيتها للحدث، من حيث مساراته وما لاته، وهو ما جعل إدارتها تدخلاتها تأخذ طابعاً فوضوياً، أنتجت كوارث حقيقة على حراك السوريين، ويكفي للتدليل على ذلك أن التحالف الآخر استخدمه ذريعةً لحرب الإبادة والتهجير ضد السوريين، بحجة أنهم يواجهون مؤامرة موصوفة.

انطلاقاً من ذلك، يستمر اليوم تحالف روسيا - إيران ناجحه في توضيب حربٍ كانت على مقاساته، بدءاً من تحريف الرواية المؤسسة للحدث، وصولاً إلى فبركة أعداء غير حقيقيين. لم يكن هدفهم لا مساندة السوريين، ولا حتى هزيمة الروس والإيرانيين، بقدر ما كان دافعهم اعتبارات خارج سياق الحدث السوري، وعندما أدركوا أنها تحققت، كما فعلت إدارة الرئيس الأميركي السابق، باراك أوباما، التي انتزعت كيماوي الأسد وجمنت نووي إيران، فوضلت الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، في إخراج الصورة النهائية، ومثله أطراف أخرى محسوبة على هذا التحالف، بما يعني أن تلك الأطراف أخذت حصتها، وانصرفت قبل هذا الزمن بوقت طويل، وقبل أن يكتشف الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، أنه أنجز الانتصار، وهو الآن في طور هندسة المنطقة وكتابه مدونة مسيرتها.

نعم، هي حرب منظومات، لكن المنظومة الأخرى اقتصرت هيكليتها على السوريين وكانت فارغة من أطراف إقليمية ودولية وازنة، على الأقل لم تشتراك ولا دولة من أقرباء الشعب السوري وحلفائه في معارك مباشرة، ولم ترسل جيوشًا، ولا آليات، كما فعلت روسيا وإيران. ثم إن حسابات الربح والخسارة ومعاييرهما بالنسبة لهذا التحالف تکاد تخرج عن العقلانية، وذلك لارتباطها بالأصل بأهداف غير عقلانية ولا منطقية، فبالنسبة للأسد النصر لديه يقاس بإفلاته من الموت على شاكلة معمر القذافي، ثم بقائه في السلطة. أما الكوارث الاقتصادية والأمنية والاجتماعية التي أنتجها "انتصاره"، فتلك قضايا ستصلح نفسها، أو يتم إصلاحها مع الزمن، على اعتبار أن الزمن "مهما طال" سيقى واقفاً عند انتصاره المزعوم.

وكذلك الأمر بالنسبة لروسيا بوتين، إذ ليس مهمًا تكاليف النصر المتحقق، ما دامت الجيوسياسة بخير، حيث تربض القواعد الروسية في قلب الشرق الأوسط، وتختبر الزوارق في مياه المتوسط، ولا بأس من اختراع رواية السيطرة على ممرات النفط والغاز، وطبعاً من دون الاهتمام، لا بحسابات الجدوى ولا التكاليف، ومدى أهمية ذلك بالنسبة لدولةٍ تفقد نخبها الحيوية، إما بالهجرة إلى أوروبا وأميركا، أو بالموت بسبب الإدمان على الكحول، هرباً من الواقع الأليم.

وقس على ذلك حسابات إيران وحزب الله للنصر والخسارة، حيث لا داعي لاستحضار كشف تفصيلي بهذا الأمر، ما دامت المسألة الأساسية تقوم على محرّكات طائفية لا عقلانية، ما يجعل من تحليلها عقلانياً مسألة عبئية بامتياز.

لعل أفعص توصيفٍ عن الانتصار المحقق في سوريا ما قاله مسؤول دولي أن "دولة الأسد قشرة رقيقة تغطي مجموعة من الضيغات" (القرى)، كما تكفي للإشارة على هذا الانتصار مراقبة الهزع والفزع الحاصل داخل روسيا، نتيجة إخباريات عن وجود قنابل في الأماكن العامة. والصحيح أن هذا النوع من الانتصارات يستدعي من المنتصر أن يبقى المهزوم خاضعاً لمدى زمني طويل، وأن يبقى هو مستنفراً، فيما لا تزال روسيا وحلفاؤها يطمحون إلى تحقيق شيء من الأمن على امتداد الأرض السورية، من دمشق إلى الحسكة.

المصادر: